الفصل الخامس

التطرف والإرهاب في الثقافة الإسلامية المعاصرة

الجنوح مفهومه وأسبابه

لا ريب في أن أفول نجم الحضارات وانكسار الثقافات وانحدار القيم يؤدي في معظم الأحايين إلى التطرف والعنف، وليس أدل على ذلك من تاريخ الأمم والجماعات الإنسانية عامة والتاريخ الإسلامي بخاصة، فلم يظهر فكر فرقة الخوارج إلا في عصر الفتن الذي عقب مقتل عثمان بن عفان ثم انفراط عقد الخلافة ومقتل علي بن أبي طالب واستيلاء الأمويين على الحكم، ولم ينتشر فكر فرقة الحشاشين إلا في عهد انقسام الخلافة الإسلامية إلى دويلات وانحطات الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعقدية وذاعت الخرافة والتعصب والدجل. ولم ينتشر مصطلح السياسية الشرعية والحاكمية الإسلامية والجهاد المسلح وما تبع ذلك من تكفير واضطهاد لأصحاب الديانات المغايرة إلا بعد تفشي الظلم السياسي والجمود الفكري والتشيع الملي قبيل انهيار الخلافة العثمانية بداية من ظهور الفكر الوهابي ونهاية إلى عصابة داعش. وإذا ما تناولنا القضية من زاوية أخرى سوف نجد أن الاستشراق

السياسي والديني والمحافل الماسونية والجماعات الإلحادية قد لعبت دوراً كبيراً في تدعيم الجماعات الجانحة بكل صورها وذلك بداية من عام 1453م عقب فتح القسطنطينية وكان هدفها جميعاً هو ضرب الإسلام من الداخل، وهذا التصور قد عُرف في الأوساط الثقافية بنظرية المؤامرة. والذي نريد أن نؤكده في هذه الدراسة أن التطرف والعنف لم يكن أصيلاً في الفكر الإسلامي ولا يمت بصلة للنصوص الشرعية، فأن النهج الراديكالي الرافض للحوار أبعد ما يكون عن طبيعة الدعوة الإسلامية المتسامحة وأن عقيدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا ترمي أبدا إلى القهر أو الحجر على الحريات وغير ذلك من مظاهر العنف الذي يمارس الآن باسم الدين. وسوف نحاول في السطور التالية توضيح ما التبس وشرح ما غمض مما قدمنا له.

❐❐❐

مفهوم التطرف الديني

أن التعريف الجامع المانع هو الذي يعبر عن الجنس القريب زائد الخاصة بلغة المناطقة، وهذا لا يتفق مع طبيعة مصطلح التطرف ولغته وسلوكه وسياقاته؛ وذلك لأنه يعبر عن الجنوح أو الجموح، وكلاهما نسبيّ، والنسبي - بطبيعة الحال - يتحول من عصر إلى آخر، ومن ثقافة وبيئة سياسية إلى أخرى، الأمر الذي يجمع الكثير من المصطلحات ذات الصلة في الدخول تحت مظلته، وكذا لا يمنعها من مشاركته في الكثير من خصاله.

وعلى الرغم من ذلك فيمكننا الاجتهاد في وضع تعريف للتطرف؛ فنقول: أن التطرف الدينيّ هو شكل من أشكال الإفراط أو التفريط أو التنطع على

نحو يتعارض مع طبيعة الديـن وثوابته وغاياته، ولما كان صريح المعقول لا يتعـارض مع صحيح المنقـول فإن التطرف هو الجانح عـن الصحيح والمتفق عليـه وقطعي الثبوت وقطعي الدلالـة في النص، وهو كذلك ما لا يقره العقل غير المتحيز إلى أيدلوجية أو عقيدة مسبقة.

أما عن أسـباب التطرف: فيمكننا ردّها إلى عوامـل بيئية ترجع إلى ثقافة أصحـاب النحـل الجانحـة، والمذاهـب الشـاطحة، والجماعـات المتطرفـة وعوائدها، ومدى دراية أهلها بطبيعة الدين، وسلامة أذهانهم، وسعة أفقهم، وأخيرًا: العقل الجمعي الذي يحيط بهم.

فـإذا نظرنـا إلى جماعتـي القرامطة[1] والحشاشـين عـلى اعتبارهما المأوى الأول للعنف والتطرف والبدع، والقول بعصمة القائد أو المرشد؛ فإننا سوف نجدهما كانتا وليدتا الصراعات السياسـية الناتجة عن تمزق الدولة الإسلامية إلى دويلات، الأمر الذي دفع الفرس من جهة وشـجع اليهود من جهة أخرى عـلى الكيـد للإسـلام وضربه مـن الداخل، أضـف إلى ذلك: مـا كان يعاني منـه العالم الإسـلامي من فسـاد في الإدارة وانحطـاط في أخلاقيات الصفوة (القصـور الحاكمـة والوزراء ورجـالات الدولـة)، بالإضافـة إلى انحراف الفقهاء وموالاتهم لأولي الأمر من الساسـة، وغيبة مـن توفرت فيهم الدربة والدرايـة والحكمة والورع شـأن الأئمة الكبار، فكل ذلك أسـهم في ظهور فرقتي القرامطة والحشاشين.

فالأولى تنسـب إلى حمدان بن الأشـعث؛ وقد ظهرت نحـو عام 278 هـ، والذي يعنينا من أمرها يتمثل في عدة أمور:

(1) ابن الجوزي: القرامطة، تحقيق محمد الصباغ، المكتب الإسلامي، ط 5، 1981.

أولها: هيكلها التنظيمي «الإخوان الأبرار الرحماء»، ثم «الإخوان الأخيار الفضلاء»، وهؤلاء يخضعون إلى قيادة «الإخوان العارفين»؛ وهم أصحاب الحل والعقد في النحلة القرمطية، وتعلوهم طبقة «الأبرار المريدين المعلمين»؛ وهم الذين يتلقون الإلهامات الإلهية والتعاليم الشرعية، وهم دون غيرهم أصحاب العصمة.

ثانيها: يبدو في الطبقة التي تخيّروها لنشر أفكارهم؛ ألا وهي طبقة (العوام والجهلاء من الزراع والصناع والبدو الجفاة وضعاف النفوس)، وكان مدخلهم إليها هو السخط على الأوضاع الكائنة والغيرة على الإسلام، والرغبة في إقامة العدل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ عن طريق العنف والجهاد المسلح.

ثالثها: فكرة الإمام الملهم الناسخ للشريعة، والمؤول للقرآن، والمحدد لدار الهداية ودار الكفر.

أما الحشاشون[1] النزاريّون؛ فهي الفرقة الثانية التي نستشهد بها في هذا السياق؛ فقد أسسها الحسن بن الصباح نحو سنة 471 هـ، والذي يعنينا من أمرها هو ذلك التشابه بينها وفرقة القرامطة من حيث طبقات العارفين والأتباع، وعلى رأسها الإمام المعصوم؛ الملهم، الناسخ للشريعة، وأمره مطاع بينهم، وتكفير دون فرقتهم من المسلمين، وتقويم الأغيار بالسيف، وخلطهم بين السياسة والعقيدة في سياق واحد.

ذلك فضلاً عن استحلالهم الكذب تحت مظلة التقيّة والتعريض،

(1) محمد عثمان الخشت: حركة الحشاشين تاريخ وعقائد أخطر فرقة سرية في العالم الإسلامي، مكتبة بن سينا للنشر والتوزيع - القاهرة 1988.

بالإضافـة إلى إنكارهم أي نزعة للولاء والانتـماء إلا للجماعة التي تربت في كنفها.

والجديـر بالإشـارة أن كلتا الفرقتـين قد كسرتا على يـد المصريين؛ قلعة الإسلام ودرعه الواقي.

أما العامل الثاني الذي أدى لتفشي ظاهرة التطرف في المجتمع الإسـلامي: فهو الكيد من قبل الدول المغلوبة التي فتحت عنوة على يد الجيش الإسلامي، وقـد كان للمجوس وغلاة اليهود وغلاة المسـيحية العامل الأكبر على نشـأة الغلو منذ أخريـات القرن الثاني الهجري، وهـو بطبيعة الحال إحدى صور التطـرف الديني، وقد ظهر ذلك بوضوح في بعض الفرق الكلامية والمذاهب الفقهيـة وشـطحات الصوفيـة، وكان مدخلهـا جميعًا هو الغـيرة على صلب العقيدة وحماية الإسـلام من الأفكار الدخيلة، ولا سـيما المذاهب الفلسفية، ثم الدس في الحديث رغبة في إفسـاده من جهة، ومسايرة السلطات السياسية الحاكمة من جهة أخرى، الأمر الذي أنتج بعد ذلك الفرق الشيعيّة، ولا سيما المنحدرة من الفرقة الإسـماعيلية، ثم الاثنى عشريّة؛ الذين شرعوا في تكفير الصحابة والتعظيم من شأن الأئمة، وزعمهم بأن لديهم فصل الخطاب في الفهم الصحيح للقرآن، والقول الأرشد في ضبط السنة، وتهذيب عوائد المسلمين.

وقد سـاهم الاسـتشراق العقديّ[1] منذ القرن العـاشر الهجري في ظهور الجماعات السريّـة الجانحة؛ كيهود الدونمة[2]؛ التي ظهرت على يد شـباتاي

(1) عبدالمنعم فؤاد: من افتراءات المستشرقين على الأصول العقدية في الإسلام.. عرض ونقد - مكتبة العبيكان - 1419هـ.

(2) محمد علي قطب: يهود الدونمة، دار الأنصار، 1978.

زيفي عام 1036هـ، وهي من أخطر الجماعات التي كان لها الأثر الأكبر في إعادة تشكيل المذاهب والنزعات والجماعات في شتى أنحاء العالم الإسلامي، ويرجع ذلك إلى تظاهر أعضائها بالإسلام، في حين أن باطنهم يسعى إلى إفساد عقيدته، واستمالة رجاله، وتسييسهم تبعًا لأهوائهم.

ولا يفوتنا في هذا السياق الحديث عن الاستشراق السياسي[1] الذي لعب دورًا لا يقلّ خطورة عن سابقه، وذلك بعد فتح القسطنطينيّة على يد محمد الفاتح سنة 857هـ؛ إذ فطن الغرب إلى أن المواجهات العسكرية المباشرة لم تقض على الإسلام، وأن الأجدى هو تفتيت الإسلام من الداخل؛ عن طريق نشر الأفكار الغريبة، والنزعات الهدامة، والديانات المصطنعة، فقد اتخذوا إلى ذلك طريقين:

أولهما:[2] حملات تشكيكية في صحة القرآن والسيرة النبويّة وكتب الحديث؛ وذلك لإنشاء جيل من المسلمين ينتصر إلى العقل الوضعي، ويهاجم كلّ ما يعجز العلم عن إثباته من قصص وأخبار، الأمر الذي يساعد على ظهور تيار آخر يهاجم العقل، وينفر من العلم، ويتمسك بما كان عليه السلف في كل شيء؛ انتصارًا للدين وخوفًا عليه من أفكار الأغيار؛ فظهرت النزعة الوهَابيّة[3] على يد محمد بن عبد الوهّاب عام 1143هـ ترفع لواء السلف، ورايـة الفرقة الناجية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتخليص المجتمع الإسلامي من البدع، وتكفير المتشبّهين بالغرب، والمبتدعين في العقيدة،

(1) مصطفى نصر المسلاتي: الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، دار اقرأ للنشر - ليبيا - 1998.

(2) إبراهيم عوض: المستشرقون والقرآن، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2003.

(3) ياسين بن علي: خروج الوهابية على الخلافة العثمانية، مجلة الزيتونة، 2014.

وتقويم الجانحين بالسيف، وجعلوا الاجتهاد والتجديد محصورين في تفسير ما انتهى إليه الفقهاء الإول، وعلى رأسهم أحمد بن حنبل وابن تيميّة، وقد ساهمت المخابرات الإنجليزية في نشر هذه الدعوة؛ وذلك لتمزيق الجامعة الإسلامية الخاضعة للواء العثمانيين آنذاك، وتجدر بنا الإشارة إلى أن الدعوة الوهابية لم تستطع التوغل في الثقافة المصرية خلال القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين؛ وذلك لقوة شيوخ الأزهر الذين كانوا يدينون بالمذهب الأشعري من جهة، ووجود فرقتي الخلواتية والوفائية من الصوفيّة، وتغلغلهما في ثقافة العوام الدينية في القرى والنجوع من جهة أخرى.

أما الطريقة الثانية: فهي طريقة صناعة البطل، وتبدو في النحل البابيّة[1] التي أسسها علي محمد رضا الشيرازي عام 1259هـ، والبهائية التي أسسها ميرزا حسين علي محمد حوالي سنة 1270 هـ، والمهديّة[2] التي أسسها محمد أحمد المهدي عام 1298هـ، والقاديانية التي أسسها مرزا غلام أحمد القادياني[3] عام 1318هـ، والإخوان المسلمين التي أسسها حسن البنا[4] سنة 1347هـ، والتكفير والهجرة[5] التي أسسها الشيخ علي إسماعيل عام 1385هـ، وجميعها قد اتصل قادتها أو أئمتها بالمخابرات الإنجليزية والروسيّة، ثم الأمريكية، وكان الهدف منها هو - كما ذكرنا - تمزيق العالم الإسلامي

(1) محمد عبدالمنعم: الأصول الباطنية للنحلة البابية، دار الهداية للنشر 2010.
(2) السيد مهدي العوادي: المهدي وآخر الزمان، دار الجنوب للطباعة، لبنان، 1419هـ.
(3) نخبة من علماء الباكستان: موقف الأمة الإسلامية من القاديانة.، دار قتيبة، 1991.
(4) رفعت السعيد: تاريخ جماعة الإخوان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2015.
(5) محمد مختار قنديل: الفكر الإسلامي الجهادي المعاصر، دار المرايا للإنتاج الثقافي، القاهرة 2016.

إلى طوائـف متناحرة، وتعطيل أي مظهـر من مظاهر النهضة أو الإصلاح في البيئة الإسلامية، وبعث روح الغلو في المعتقد السائد؛ وذلك لتشويه حقيقة الإسلام، والحد من الإقبال عليه في الغرب.

والذي يعنينا من ذكر هذه الجماعات هو تلك السـمات التي تجمع بينها؛ وهـي لا تختلـف عـن القرامطة والحشاشـين - كما ذكرنـا، وذلك باسـتثناء الدعـوة الوهابيّة والسنوسـيّة، فجميعهم يزعم أن لديـه فصل الخطاب، وأنه جاء بدعوة مكمّلة للرسـالة المحمديّـة، وأن جماعتهم دون غيرها يمثل الفرقة الناجية، وأن لا ولاء إلا لله، وأن الانتماء للوطن أو العرق من فعل الطاغوت، وأن الإسـلام دين ودولة، والدولة هي الخلافة الإسلامية، وأن المجتمع المدنيّ دونهم كافر.

أمـا الوهابيون فقد تفرعـت جماعتهم في العالم العـربي واتخذت العديد من الأسماء؛ مثل أنصار السنة والجمعية الشرعية وجماعة المسلمين للتكفير، وجماعة التبليغ في مصر، وكتائب الحق وحزب التحرير الإسلامي في سوريا، وجنـود الرحمن في لبنـان، وحزب التحرير في الأردن، والحزب الإسـلامي في تونس، والحركة الإسلامية في الجزائر، والإخوان المسلمين في المغرب[1]، وهم لا يختلفون عن غيرهم في استخدام العنف، وتوجيه لفظة الجهاد توجيهًا خاصًّا تجاه المجتمع الإسلامي بحجة أنه أضحى مجتمعًا جاهلاً، وظهر التيار القطبي مـن الإخوان مسـايرًا للتيار المودودي يجمـع بين بعض معتقـدات الوهابيّين وفكرة السمع والطاعة التي تميزت بها الاتجاهات الجانحة التقليديّة.

(1) ريتشارد هرير دكمجبان: الأصولية في العالم العربي، ترجمة عبدالوارث سعيد، دار الوفاء - المنصورة، 1985م.

وأما الفارق بين التطرف الديني أو التطرف أو التعصب في الدين: فيمكننا التماسه في عدة مظاهر؛ إذ يمكننا اعتبار المتصوفة شكلاً من أشكال الجماعات المتعصبة للفكر الباطني؛ الذي يعتمد على الوجدان في العرفان، و يعتبر التجديد في الإفراط في التقليد، وأن اعتزال العالم بكل ما فيه هو الطريق الأصوب والآمن دائمًا، وعلى مقربة من هؤلاء نجد الحنابلة المعاصرين والمرجئة؛ الذين تمسكوا بظاهر النص، واعتقدوا بأن كل وافدٍ بدعة، وأن السير على سنة السلف دون تأويل أو اجتهاد هو الذي سوف ينجيهم من النار.

أما الفرق المتطرفة: فهم الذين اتخذوا من العنف سبيلاً لفرض رؤيتهم أو معتقدهم، ومن الإطاحية ضربًا للحكم على خصومهم، فسلاحهم في التساجل هو التكفير، وسبيلهم إلى السياسة هو التّقية والتعريض والمداراة والمسايرة، وغير ذلك من الأمور التي نهى عنها النبي، فلا اغتيال ولا غدر ولا كذب باسم العقيدة، وليس أدل على ذلك من مسلك النبي في مكة مع المشركين ودأبه في المدينة مع اليهود، والقبائل الراغبة عن الإسلام، فلم يرفع السيف ليكره الناس على إتباعه وهو النبي المتيقن بأن سبيله هو الحق، وأن ما عليه خصومه هو الباطل[1]، فلم يكن محمد بن عبد الله وصحابته من أولئك المتعصبين للقديم؛ الذي وجدوا عليه أبائهم، ولا من الجانحين الإرهابيّين الذين استحلوا دماء الناس بغير حق، وعليه: فإن كل ما نراه من هذه الجماعات غريبًا عن الإسلام، ولا يمثله، ولا يعبر عن صحيح معتقده،

(1) عصمت نصار: حقيقة الأصولية في فكر عبدالمتعال الصعيدي، دار الهداية، القاهرة - 2004م.

فكنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف بغير منكر، وتنهون عن المنكر بالمعروف، هكذا كان ديدن السلف؛ الذين نقتفي أثرهم.

❐❐❐

التطرف الديني في ضوء نظرية المؤامرة

بالطبع لا يمكننا إنكار نظرية المؤامرة، ولكنها لم تحبك أو تصاغ على النحو الذي نعتقده في مخيلتنا، فالعالم الغربي تحكمه عدة مؤسسات؛ منها الاقتصادي، والأيدلوجي، والعقدي، وكل من هذه المؤسسات يعمل بطبيعة الحال لخدمة ذاته، فلا يعقل أن تضحي المؤسسات الاقتصادية بمصالحها أو مكاسبها لصالح أمة ما، وبمعنى آخر: أن الغرب الصناعي المنتج من مصلحته أن يظل العالم العربي الإسلامي راكدًا، ويلعب في سوق الاقتصاد دورَ المستهلك فقط، ومن ثم: عندما يعرقل أو يراقب أو يستقطب كل ما يساعد على نهوض هذه المنطقة فنجده أول المعرقلين؛ دفاعًا عن مصالحه.

أما المؤسسات السياسية فمن مصلحتها أيضًا أن تكون هذه المنطقة في وضع غير مستقر سياسيًّا، فدائمًا ما تجد الأصوات التي تحول بين العرب واتحادهم في سياق كونفدرالي أو تفعيل بعض ما جاء في ميثاق الجامعة العربية، بدايةً من الاقتصاد ونهاية بالدفاع المشترك، أقول ثانية: من مصلحة الغرب أن تكون لهم اليد العليا في تسييس هذه المنطقة، وقد استثمروا بعض عملائهم في الشرق الأوسط؛ بدايةً من تمزيق الولايات العثمانية، ومرورًا بإحباط كل المحاولات الوحدوية بين مصر وجيرانها (مصر والسودان - مصر وسوريا - مصر وليبيا والسودان - مصر وليبيا والسودان والعراق)،